مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد
السابع عشر
2000

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة - تصدر سنويا

1430 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 2000 افرنجي

التصريفُ في الدّراسات القرآنيّة والبلاغيّة

دِرَاسَةٌ تُؤَسِّسُ لِمُصْطَلَحِ التَّصْرِيفِ وَتَنفي مُصْطَلَحَ التَّكرارِ في تَوجِيهِ الآيَات

الدكتور عبد الله النقراط

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه.

أما بعد، فإن موضوع التصريف القرآني من الموضوعات المهمة التي تحتاج إلى البحث، والدراسة في كثير من جوانبه؛ لمعرفة أسرار القرآن الكريم، ودلائل إعجازه، وكنوز عظمته، وبخاصة أن هذا المصطلح، قليل الاستعمال في الدراسات القرآنية والبلاغية، قديماً وحديثاً، اللهم إلا ما ورد من إشارات مقتضبة جاءت في ثنايا حديث بعضهم، وما قدمناه من دراسة بعنوان: «بلاغة

تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى)»[1].

وقد فضلوا استعمال مصطلح التكرار، ظناً منهم أن هذا المصطلح جدير بدفع الشبهات عن القرآن الكريم، وأغفلوا التأليف في مصطلح التصريف، الذي هو أولى من مصطلح التكرار دلالة، وتنزيهاً للقرآن عن المطاعن.

وقد دعاني للكتابة في هذا الموضوع رغبتي في التنبيه إلى المصطلح اللائق بكتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي يجب أن توجه الآيات الكريمة من خلاله؛ لأنه مصطلح قرآني، ذكره الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز، وذلك لتعميق هذا المصطلح، وفتح أبواب الدراسة فيه، وتفضيله على غيره من المصطلحات الأخرى التي نافسته في الاستعمال.

ومن ثم فإن هذه الدراسة المتواضعة، ستبين الاستعمال الخاطىء لمصطلح التكرار، والدلائل الدالة على التصريف القرآني، التي ستتكلم فيها عن العناصر الآتية:

أولاً: التصريف لغة:

قال الراغب الأصفهاني: «الصّرف ردُّ الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، يقال صرفْتُهُ فانصرف، قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾[2] ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾[3] وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[4].

والتصريف كالصّرف إلا في التكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر، وتصريف الرياح، هو صرفها من حال إلى حال، قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾[5] ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾[6] ومنه تصريف

---

(1) وهي أطروحة دكتوراه، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس (المغرب) مرقونة، لم تنشر بعد.

(2) سورة آل عمران، الآية: 152.

(3) سورة هود، الآية: 8.

(4) سورة التوبة، الآية: 128.

(5) سورة الأحقاف، الآية: 26.

(6) سورة طه، الآية: 110.

الكلام، وتصريف الدراهم»[7].

وقال صاحب «اللسان»: «الصّرف ردّ الشيء عن وجهه... صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفاً فانصرف، وصارف نفسَه عن الشيء؛ صرفها عنه... إلخ ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: بيّناها، وتصريف الآيات تبيينُها، والصرف أن تصرف إنساناً عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك.

ومنه تصريف الرياح والسّحاب، الليث: تصريف الرياح صرفها من جهة إلى جهة، وكذلك تصريف السيول، والأمور والآيات، وتصريف الرياح: جعلها جنوباً، وشمالاً، وصباً، ودُبوراً، فجعلها ضروباً في أجناسها»[8].

ثانياً: التصريف اصطلاحاً:

قال الرماني: «التصريف: تصريف المعنى في المعاني المختلفة، كتصريفه في الدلالات المختلفة، وهو عقدها به على جهة التعاقب، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة، وهو عقدها على جهة المعاقبة، كتصريف الملك في معاني الصفات، فصرف في معنى مالك، وملك، ذي الملكوت، والمليك، وفي معنى التمليك، والتمالك، والإملاك، والتملك والمملوك.

كذلك تصريف معنى العرض في الإعراض، والاعتراض، والاستعراض، والتعرض والتعريض، . . . وكله منعقد بمعنى الظهور.

وهذا الضرب من التصريف فيه بيانٍ عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدل عليه.

أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة، فقد جاء في القرآن في غير قصة، منها قصة موسى ـ عليه السلام ـ ذُكرت في سورة الأعراف، وفي طه،

---

(7) المفردات في غريب القرآن، ص279 ـ 280، كتاب الصاد مادة: صرف.

(8) لسان العرب، 9/ 189 مادة: صرف.

والشعراء، وغيرها لوجوه من الحكمة، منها: التصرف في البلاغة من غير نقصان، عن أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة، ومنها حل الشبهة في المعجزة...

فظهور الحِجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة»[9].

وقد عقب الأستاذ أبو زيد[10] على هذا التعريف، فقال: «هذا أول تعريف للتصريف يلتقي به الباحث المتصفح للدراسات القرآنية، وقد انفرد أبو الحسن الرماني باستعمال هذا المصطلح، وبجعله باباً من أبواب بلاغة القرآن، لكنه أوجز الكلام في هذا الباب بصورة جعلت حقيقة التصريف غير واضحة، وعذره في ذلك أنه التزم بشرطه في رسالته، وهو الاختصار، غير أنه أحسن التقريب حين ذكر أن التصريف جاء في القرآن في غير قصة، كقصة موسى ـ عليه السلام ـ وغيرها، ففي ذلك تقريب لحقيقة التصريف، ومدلوله البياني»[11].

وبمثل تعريف الرماني، عرفه أبو بكر الباقلاني[12]، ولعله نقله منه، دون أن يعزوه لصاحبه، وبخاصة أن الرماني متقدم عليه.

وقال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾[13] «ومعنى صرفنا: نوعنا من جهة إلى جهة، ومن مثال إلى مثال، والتصريف لغة: صرف الشيء من جهة إلى جهة.

ثم صار كناية عن التبيين، فقال: لم نجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعيداً، ومحكماً ومتشابهاً، وأمراً ونهياً، وناسخاً ومنسوخاً وأخباراً وأمثالاً، مثل تصريف الرياح من صبا ودبور، وجنوب وشمال، ومفعول صرّفنا

---

(9) النكت في إعجاز القرآن، ص101 ـ 102.

(10) هو الدكتور أحمد أبو زيد، أستاذ التعليم العالي، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط، وهو الذي تولى الإشراف على أطروحتي التي سبق ذكرها.

(11) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم، وهو بحث للأستاذ أبو زيد، لم ينشر بعد ص4.

(12) انظر إعجاز القرآن، ص274.

(13) سورة الإسراء، الآية: 41.

محذوف، أي صرّفنا الأمثال، والعبر والحكم، والأحكام والأعلام»[14].

وأوضح من هذا قول محمد الطاهر بن عاشور، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾[15]، إذ قال: «وتصريف الآيات اختلاف أنواعها، بأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات السموات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس، ومرة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله، فالآيات هنا هي دلائل الوحدانية، فهي متحدة في الغاية، مختلفة في الأساليب، متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام»[16].

نستخلص من التعريفين اللغوي والاصطلاحي أن تصريف الآيات هو تنويعها في المعنى الواحد، أو الموضوع الواحد، وعرضها بصور شتى وأساليب مختلفة، وذلك لتقرير أصول العقيدة، وعرض أدلتها، وبيان الحجج والدلائل الدالة على الوحدانية، وإثبات البعث والجزاء، والنبوة والرسالة، وإيراد القصص والأمثال، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشرائع والأحكام، والأوامر والنواهي، وما إلى ذلك مما صرف القرآن بيانه.

إن هذه الموضوعات تتردد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وفي كل سورة تقريباً، لكن طرائق عرضها وأساليب تقريرها تبدو في كل موضع جديدة، وقد يظن عند النظرة السريعة أن ذلك تكرار، قصد به ترسيخ تلك المعاني، لكن عند التدبر والتعمق، يظهر أنه ليس تكراراً، ولا ينبغي أن يسمى تكراراً، وأن الأنسب تسميته بالتصريف[17]، اقتداء بكتاب الله ـ تعالى ـ الذي وردت فيه آيات كثيرة تدلنا على هذا المصطلح، سنذكرها في الفقرة الآتية:

ثالثاً: أدلة التصريف القرآني:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم، يجد آيات كثيرة ذكرت مصطلح

---

(14) البحر المحيط، 6/ 36 ـ 37.

(15) سورة الأنعام، الآية: 47.

(16) التحرير والتنوير، 7/ 235.

(17) ينظر بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى) 1/ 5.

التصريف في مواضع متفرقة من الكتاب العزيز، أذكر بعضاً منها للاستدلال على هذا المصطلح القرآني، إذ قال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[18].

وقال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[19]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[20]. وقال الله تعالى: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[21].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[22].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[23].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[24].

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[25].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[26].

وقال اب تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[27].

---

(18) سورة الأنعام، الآية: 47.
(19) سورة الأنعام، الآية: 66.
(20) نفسها، 106.
(21) سورة الأعراف، الآية: 57.
(22) سورة الإسراء، الآية: 41.
(23) نفسها، 89.
(24) سورة الكهف، الآية: 53.
(25) سورة طه، الآية: 110.
(26) سورة الفرقان، الآية: 50.
(27) سورة الأحقاف، الآية: 26.

وغيرها من الآيات الدالة على التصريف في القرآن الكريم، وقد جاء فعل التصريف في هذه الآيات واقعاً على الآية في مواضع، وعلى المثل والوعيد، وعلى القرآن كله في مواضع أخرى.

رابعاً: خطأ استعمال مصطلح التكرار في توجيه الآيات، ومساويه:

استعمل بعض العلماء الذين اهتموا بعلوم القرآن الكريم وبلاغته مصطلحاً لا يليق بالقرآن الكريم وعظمته وهو مصطلح التكرار، إذ نجد غير واحد من المتقدمين وغيرهم، عدل عن مصطلح التصريف، وصرف الكلام إلى التكرار في توجيه الآيات الكريمة، على أن مصطلح التصريف لم ينل كثيراً من عناية أصحاب الدراسات القرآنية والبلاغية، وفيما يلي استعراض لآراء بعض منهم حول مصطلح التكرار ومناقشتها، لتتبين منها خطأ استعماله في توجيه الآيات الكريمة، واضطرابهم حول هذا المصطلح؛ لنصل بذلك إلى المصطلح اللائق بتوجيه الآيات الكريمة، ألا وهو مصطلح التصريف القرآني.

ومن ثم فإن الحديث عن مصطلح التكرار ومساويه، سيكون مقسماً إلى فقرتين، الأولى عن خطأ استعماله في توجيه الآيات، والثانية عن مساويه:

1 ـ خطأ استعمال مصطلح التكرار:

شاع استعمال مصطلح التكرار في القديم والحديث، بين المهتمين بالدراسات القرآنية، والبلاغية، وأفرده بعضهم بالتأليف، فألف فيه ابن جماعة كتاباً سماه:

«المقتنص في فوائد تكرار القصص»[28] وألف فيه من المحدثين: عبد المنعم السيد حسن، كتاباً سماه: «ظاهرة التكرار في القرآن الكريم»[29].

---

(28) انظر معترك الأقران، 1/ 263، والإتقان، 3/ 204، وذكره صاحب «كشف الظنون» بعنوان «المقتص في فوائد تكرار القصص» (انظر كشف الظنون، 2/ 1793) وقد أثبته محقق «كشف المعاني في المتشابه من المثاني» عبد الجواد خلف، بعنوان: «المقتص» اعتماداً على ما ذكره حاجي خليفة، وإسماعيل باشا (انظر كشف المعاني، ص36.

(29) ذلك ما بينه في مقدمة كتابه، إذ قال: «ولما شرفني الله بارتياد تلك الآفاق الرحبة، عنّ لي أن أشرف باختيار ظاهرة من ظواهر القرآن الكريم، هي ظاهرة التكرار، أو بالأحرى ظاهرة ما يحسبه الناس تكراراً. . .» ص5.

هذا فيما يتعلق بالمؤلفات التي ألفت فيه، وأما فيما يتعلق بالذين تعرضوا له من خلال كتاباتهم فكثيرون، نذكر منهم في هذه الدراسة، أصحاب الدراسات القرآنية والبلاغية[30].

وقد اهتم هؤلاء بمصطلح التكرار، واختاروا لذلك أمثلة من القرآن الكريم، أوردها كل من تحدث منهم في هذا الموضوع، وكانت نتائجهم متفقة، وكأنها دراسة لشخص واحد.

فلعل ابن قتيبة أول من عرض لمصطلح التكرار، عرضاً موجزاً مركزاً، إذ عقد له باباً سماه باب تكرار الكلام والزيادة فيه، وقد قال في ذلك: «أما تكرار الأنباء والقصص فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزل القرآن في نجوم...» ثم مضى يسرد الحكم إلى أن قال: «وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم»[31].

واستعمل الباقلاني مصطلح التكرار مراداً به التصريف، إذ قال: «ومن تصريف المعنى في الدلالات المختلفة ما كرر من قصة موسى في مواضع»[32].

وعرفه ابن الأثير بأنه: «دلالة اللفظ على المعنى مردّداً» وقسمه، قسمين: أحدهما يوجد في اللّفظ والمعنى، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ.

ومثل لكل منهما بأمثلة لا يسع المقام لذكرها، وبين أن كلاً من هذين القسمين ينقسم إلى مفيد، وغير مفيد، ومثل لهما بأمثلة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ * لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[33].

---

(30) وقد أفرد الذين صنفوا في المتشابهات مصطلح التكرار بالحديث وتوسعوا فيه، وسنخصص لذلك بحثاً مستقلاً، في دراسة لاحقة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

(31) تأويل مشكل القرآن، ص232.

(32) إعجاز القرآن، ص274.

(33) سورة الأنفال، الآيتان: 7 و8.

ثم قال: «هذا تكرير في اللفظ والمعنى، وهو قوله: ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ وإنما جيء به ههنا لاختلاف المراد، وذاك أن الأول تمييزٌ بين الإرادتين، والثاني: بيانٌ لفرضه، فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها، وأنه ما نصرهم وخذل أولئك إلا لهذا الغرض»[34].

فهذا في رأينا لم يكن تكراراً؛ لاختلاف المراد، وذلك ما بينه ابن الأثير في تعقيبه على هذه الآية.

وتحدث عنه الإمام عز الدين بن عبد السلام في كتابه «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» وعده النوع الثالث عشر، من مقاصد القرآن، ويرى أنه دالّ على الاعتناء والاهتمام بالمكرر، فتكرير صفات الله ـ تعالى ـ دالّ على الاعتناء بمعرفتها والعمل بموجبها، وتكرير القصص دال على الاهتمام بالوعظ للإيقاظ والاعتبار[35].

ومن هنا نجد أنه استعمل هذا المصطلح في غير محله، وبخاصة فيما يتعلق بصفات الله ـ تعالى ـ والقصص، فذلك تصريف للبيان القرآني على ما مر بيانه.

وعده السجلماسي الجنس العاشر، في كتابه «المنزع البديع» وفصل القول في أنواعه، ثم وصل من خلال ذلك إلى أن المقاربة ـ وهو نوع من التكرار ـ جنس متوسط تحته نوعان، أحدهما التصريف، والثاني: المعادلة، وذلك أنه إما أن يعيد لفظين فصاعداً متفقي المادة فقط دون الصورة، وهذا هو التصريفُ، وإما أن يُعيد لفظين متفقَي الصورة فقط، دون المادّة وهذا هو المعادلة[36].

وعده ابن النقيب، القسم الحادي عشر في مقدمة تفسيره[37]، ورأى أن الكلام فيه من وجوه: الأول في حقيقته، والثاني في ذكر الفائدة التي أُتي به من أجلها، والثالث في أقسامه، والرابع في ذكر ما يتهيأ فيه التكرار الحسن منه والقبيح.

---

(34) المثل السائر، 3/ 3 ـ 4.

(35) الإشارة إلى الإيجاز، ص217.

(36) المنزع البديع، ص499.

(37) المنسوب خطأ لابن القيم الجوزية، بعنوان «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان».

وقد أتى بأمثلة من القرآن الكريم، لكل قسم ونوع من الأنواع التي يرى التكرار فيها حسناً، وقال عن النوع الثاني، وهو التكرار القبيح: «فهو التكرار العاري عن الفائدة، وهو لا يخلو إما أن يكون في المعنى وحده، أو في المعنى واللفظ معاً، أما الأول فقد أعابه بعضهم مطلقاً، وبعضهم فصّل فأعابه على الناثر، وعلى الناظم، وأما الثاني: فقد اتُّفِقَ على قبحه»[38].

وذكر الخطابي، أنه يوجد في القرآن الحذف الكثير والاختصار الذي يُشكِل معه وجه الكلام ومعناه.

وقد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف، واستدل على كل منهما بأمثلة من القرآن، وخص منه بالذكر التكرار، الذي مثل له بتصريف قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن، وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سورة المرسلات، ثم قال: «وليس واحد من المذهبين بالمحمود، عند أهل اللسان، ولا بالمعهود في النوع الأفضل من طبقات البيان»[39].

وعدَّه الزركشي: القسم الرابع عشر في كتابه «البرهان في علوم القرآن» وعرفه بقوله: «وهو مصدر كرر إذا ردد وأعاد».

ويمضي بعد هذا موضحاً التكرار في القرآن، ومستشهداً بأدلة من القرآن نفسه؛ لبيان ذلك، وقد صرح بأهم غرض للتكرار، بقوله: «وفائدته العظمى التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر»[40].

وقد استشهد أيضاً للسبب الذي لأجله كرر الله ـ سبحانه وتعالى ـ القصص والأخبار ـ على حد قوله ـ بقوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[41]، وقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[42].

---

(38) مقدمة تفسير ابن النقيب، ص111 ـ 113.

(39) بيان إعجاز القرآن، ص39 ـ 40.

(40) البرهان في علوم القرآن، 3/ 8 ـ 10.

(41) سورة القصص، الآية: 51.

(42) سورة طه، الآية: 110.

وهاتان الآيتان في رأينا دالتان على التصريف لا على التكرار، وقد استغرب الأستاذ أبو زيد من أن بعض المصنفين في علوم القرآن، من القدماء يؤثر مصطلح التكرار في عنوان الباب، وحين يصل إلى الحديث عن فوائد التكرار يستدل بالآيات التي جاء فيها لفظ التصريف، كما هو عند الزركشي والسيوطي، وغيرهما، وفي هذا الصنيع ما يدل على أن هؤلاء كانوا يتساهلون في استخدام هذه المصطلحات ولا يلتزمون التدقيق والتحديد، وإلا فكيف يفسر هذا الانصراف عن مصطلح التصريف الذي ورد في القرآن، وإيثار مصطلح التكرار الذي لا يؤدي حقيقة مفهوم التصريف، ولا يناسب كلام الله المنزه عن كل نقص أو فساد[43].

ثم انتقل الزركشي بعد ذلك لبيان فوائد التكرار حسبما رآه، وحصرها في سبع فوائد، هي على الترتيب: التأكيد، وزيادة التنبيه، وتطرية للكلام وتجديد لعهده، والتعظيم والتهويل، وفي مقام الوعيد والتهديد، والتعجب، ولتعدد المتعلق. .

وقد ذكر لكل فائدة من هذه الفوائد أمثلة يضيق المقام لذكرها[44].

وعدَّه السيوطي النوع الرابع من أنواع الإطناب بالزيادة في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» ويرى أنه أبلغ من التأكيد، ومن محاسن الفصاحة، خلافاً لبعض من غلط[45].

وتعرض له كذلك في كتابه «معترك الأقران في إعجاز القرآن»[46] وهو نفس ما ذكره في «الإتقان».

ومن ثم أكتفي بهذه الإشارة عن السيوطي؛ لأن ما ذكره قد تعرض له الزركشي قبله بنصه.

وتعرض له أيضاً الفقيه العالم الطوفي سليمان في كتابه «الإكسير في علم

---

(43) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم، ص13.

(44) البرهان، 3/ 11 ـ 33.

(45) الإتقان في علوم القرآن، 3/ 199.

(46) معترك الأقران في إعجاز القرآن، 1/ 358 وما بعدها.

التفسير» وعرفه بقوله: «وهو ذكر الشيء مرتين فصاعداً» ويرى أن فائدته تكمن في تأكيد الأمر وتفخيمه وتعظيمه، أو عكس ذلك، وهو عنده قسمان: تكرار اللفظ والمعنى جميعاً، وتكرار المعنى دون اللفظ، وصرح بأن كلاً منهما مفيد وغير مفيد، واستشهد لذلك بأمثلة من القرآن نفسه لكل قسم منها يطول ذكرها[47].

وسار على نهجهم المحدثون في استعمال مصطلح التكرار، فاستخدموه في مصنفاتهم بدل مصطلح التصريف.

فهذا مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ يرى أن للتكرار معنى دقيقاً في التحدي، فقال: «وههنا معنى دقيقٌ في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً، وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد، وبسط الموعظة، وتثبيت الحجة ونحوها... وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم للتهويل، والتوكيد، والتخويف، والتفجع، وما يجري مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه في كثير من كتب الأدب والبلاغة»[48].

وقد نبه الإمام محمد أبو زهرة في حديثه عن الإطناب ومواضعه في القرآن أن التكرار ليس من الإطناب، وهو من الحشو، إذا كان في سياق واحد، فالسياق الواحد لا يتكرر فيه المعنى، ولا يتكرر فيه اللفظ، وإذا بدا للقارىء الذي لا يمحص المعاني والحقائق أن في الكلام القرآني تكراراً للمعنى، فإن ذلك عند ذوي الفهم السليم تفكير سقيم؛ لأن تكرار المعنى له وصف آخر، يؤدي فكرة جديدة.

وقد ضرب لذلك أمثلة وناقشها رداً على من ادعى تكراراً في المعنى،

---

(47) الإكسير في علم التفسير، ص245.

(48) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص193 ـ 194.

مبيناً أنه لا تكرار، وأنه لا يوجد تكرار لفظي في جملة واحدة، ولا في موضع واحد[49].

ولندعه يحدثنا عن ذلك بقوله: «وقد ادعى بعض العلماء التكرار في مواضع في القرآن، وعلله بما لا يتنافى مع إعجاز القرآن الكريم، بل إنه من دلائل الإعجاز، إذ إن تكرار المعنى الواحد بعبارات مختلفة في مواضع مختلفة، مع جمال الألفاظ والجمل في مواضعها المختلفة، كأن يكرر المعنى في قصة في سور مختلفة، وكل عبارة معجزة في ذاتها، ويتحدى بها في نغمها وموسيقاها وألفاظها وجملها، وعجز العرب عن أن يأتوا بأي عبارة منها، دليل على كمال الإعجاز في جملته وفي أجزائه».

ونحن نرى أن لا تكرار في عبارات القرآن، بمعنى أن يكرر المعنى من غير حاجة إليه، بل ذكرنا أنه إذا تكرر لفظ أو معنى فإنما يكون ذلك لمناسبة جديدة، ويكون عدم ذكر ما يدعى فيه التكرار إخلالاً، وذلك مستحيل على كتاب الله تعالى»[50].

ويرى صاحب «دراسات قرآنية»: أن التكرار في القرآن من الظواهر التي تلفت النظر، وقد تكون أشد وضوحاً في السور المكية منها في السور المدنية، ولكن السور المدنية كذلك لا تخلو من التكرار.

ويؤكد بأن التكرار لا يأتي اعتباطاً، إنما يأتي لهدف مقصود، وقد أشار إلى أن القرآن حين يُتلى مجمعاً على صورته في المصحف، لا نجد فيه تكراراً حقيقياً بالمعنى المفهوم من اللفظ، إنما نجد ظاهرة أخرى في الحقيقة من حيث هي جمال فني في التعبير، ومن حيث هي لون من التأثير الوجداني فريد.

وقد قرر أن قليلاً جداً من الآيات، أو من العبارات هي التي وردت بنصها أكثر من مرة في القرآن لأمر مقصود...

---

(49) المعجزة الكبرى القرآن، ص313 ـ 315.

(50) نفسه، ص315 ـ 316.

وفيما عدا هذا القليل النادر، الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هي «التكرار» وإنما هي التنويع.

وقد أشار كذلك إلى أن أكثر الموضوعات التي تكرر وتنوع في ذات الوقت هي موضوعات العقيدة، وذلك في السور المكية والمدنية على السواء.

وقد أتى على بعض النماذج من القصة في بعض السور، التي توهم لأول وهلة أن هناك تكراراً في المفردات وفي المجموع(51).

وقد استنتج من هذه النماذج التي أوردها أنها تجيء في كل مرة بصيغة مختلفة تماماً، ذلك أن كل سورة تركز على جانب معين، وتعرض ذات القصة لهدف مختلف، وكذلك تختلف المقادير المأخوذة من كل موضوع، في كل سورة عن الأخرى، با ختلاف الهدف من إيرادها، ونقطة التركيز فيها.

ومع ذلك لا توجد صورة مكررة بمعنى التماثل مع أية صورة أخرى، في أثناء هذا القصص المتكرر كله؛ لأن التماثل لا يحدث قط في القصص القرآني.

وأخيراً، قرر: أن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن، وإنه لمن إعجاز هذا الكتاب أن يعرض الموضوعات التي يكرر ذكرها للتذكير، والتربية والتوجيه، بهذا القدر المعجز من التنويع، بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبداً في القرآن كله، على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع(52).

يلاحظ أن في الكلام السابق خلطاً بين مصطلح التكرار والتصريف؛ لأن صاحبه لم يهتد إلى المصطلح الصحيح، كما هو الحال عند غيره ممن سبقوه، ومن هذا الخلط ما ذكره بقوله: «وفيما عدا هذا القليل النادر، الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هي «التكرار» وإنما هي التنويع، فقوله: هي التنويع، يعني التصريف ـ على ما بيناه فيما سبق ـ.

ونراه يقرن التكرار بالتنوع، إذ يقول: «إن أكثر الموضوعات تكرر وتنوع... هي موضوعات العقيدة».

---

(51) دراسات قرآنية، ص245 ـ 249.

(52) نفسه، ص251 ـ 261.

ومما يؤكد أيضاً خلطه بين المصطلحات وعدم تصريحه بمصطلح التصريف، ما استنتجه من النماذج التي أوردها، عن مصطلح التكرار، من أنها تجيء كل مرة بصيغة مختلفة تماماً، فاختلاف الصيغ يعني التصريف، وهو ما قرره في ختام نتائجه، حين قال: «إن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن»[53].

إن هذا يرجع إلى عدم التدقيق في المصطلحات والتفريق بينها.

ويرى صاحب «الظاهرة الجمالية في القرآن» أن التكرار التام قليل في القرآن لا يتجاوز سوراً ستاً، مثل الرحمن، والتكاثر، أما الكثرة الكثيرة فهي تكرار في كلمة، وأحياناً (معدلة) أو في تركيب يزاد فيه أو ينقص منه حسب الحاجة الفكرية والجمالية في اللفظ والمعنى[54].

وذكر صاحب «الإعجاز في دراسات السابقين» أنه وقع في القرآن الكريم صور من التكرار اللفظي لبعض الجمل والكلمات أو الأحداث، كالقصص ونحوها، وبعض هذا التكرار يمر دون أن يجد من القارىء أو السامع شيئاً يلفته إليه؛ إذ يقع التكرار على نحو مألوف للأذن، على ما جرت به الأساليب البيانية في اللغة، وذلك كأن يتكرر اللفظ أو الجملة لغرض التوكيد.

وقد يجيء التكرار على صور غير مألوفة؛ فيبدو واضحاً أن لهذا التكرار مقصداً غير مقصد التوكيد، إذ يمتد ويطول في سلسلة تنتظم السورة كلها، وتأخذ بها من جميع أطرافها[55].

ثم قال: «إن تفرد القرآن بهذا اللون من الأسلوب مع احتفاظه بمستواه الذي عرف له من روعة النظم، وجماله، واتساق نغمه، هو شهادة قائمة للقرآن بالإعجاز»[56].

---

(53) انظر المرجع السابق.

(54) الظاهرة الجمالية في القرآن ـ نذير حمدان ـ، ص108.

(55) الإعجاز في دراسات السابقين ـ عبد الكريم الخطيب ـ، ص393.

(56) نفسه، ص413.

وممن قالوا بوجود التكرار في القرآن الكريم، صاحب «خصائص التعبير القرآني» مبيناً أنه يقع على وجوه منها:

1 ـ مرة يكون المكرر أداة تؤدي وظيفة في الجملة بعد أن تستوفي ركنيها الأساسيين.

2 ـ وأخرى تكرر كلمة مع أختها لداع بحيث تفيد معنى لا يمكن الحصول عليه بدونها.

3 ـ فاصلة تكون في سورة واحدة على نمط واحد.

4 ـ قصة تكرر في مواضع متعددة، مع اختلاف في طرق الصياغة، وعرض الفكرة.

5 ـ بعض الأوامر والنواهي والإرشادات والنصح، مما يقرر حكماً شرعياً...

ثم قال: «وتكرار القرآن في جميع هذه المواضع التي ذكرناها، والتي لم نذكرها مما يُلحظ عليها سمة التكرار، في هذا كله يباين التكرار القرآني ما يقع في غيره من الأساليب؛ لأن التكرار وهو فن قولي معروف، قد لا يسلم الأسلوب معه من القلق والاضطراب، فيكون هدفاً للنقد والطعن؛ لأن التكرار رخصة في الأسلوب، إذا صح هذا التعبير، والرخص يجب أن تؤتى في حذر ويقظة»[57].

إننا لسنا معه فيما يراه من تكرار في القرآن الكريم، بحثاً له عن تعليل مناسب؛ لأسباب منها:

أولاً: ما ذكره من أن التكرار لا يسلم من القلق والاضطراب... إلخ.

فإنه لا ينبغي أن نصف آي كتاب الله ـ تعالى ـ بهذا الوصف، الذي لم يصرح به القرآن الكريم، وقد أبدلنا خيراً منه مصطلحاً مناسباً لمقامه الكريم، وهو تصريف القول، في غير ما آية ـ ذكرناها ـ في أدلة التصريف القرآني.

ثانياً: ما صرح به من اختلاف طرق الصياغة، وعرض الفكرة، فإن في

---

(57) خصائص التعبير القرآني، 1/ 321 ـ 322.

اختلاف طرق الصياغة وعرض الفكرة نفياً للتكرار؛ لأنه إذا اختلفت طرق الصياغة، اختلفت معه المعاني[58].

وقد سمى بعض المهتمين بالبلاغة وعلوم القرآن مصطلح التكرار بالترداد، إذ نجد الجاحظ قد عقد له مبحثاً خاصاً في كتابه «البيان والتبيين»، وسماه بهذا الاسم، ونقل في كتابه هذا أقوالاً نورد منها قوله: «وجعل ابن السّمّاك يوماً يتكلّم وجارية له حيثُ تسمع كلامه، فلما انصرف إليها، قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده، قال: أردّده حتّى يَفْهَمَهُ مَن لم يَفهمه، قالت: إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد مَلّه من فهمه».

ونقل أيضاً قول سفيان بن عُيَيْنَة عن الزُّهري قوله: «إعادة الحديث أشد من نقل الصخر، ثم قال: «وجملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يُؤتى وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص».

وقد ورد هذا المصطلح في كلامه مراداً به التصريف، وذلك قوله: «وقد رأينا الله ـ عز وجل ـ ردد ذكر قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وثمود، وكذلك ذكر الجنة والنار، وأمور كثيرة لأنه خاطب جميع الأمم من العرب، وأصناف العجم، وأكثرهم غبي غافل، أو معاند مشغول الفكر، ساهي القلب»[59].

وعقد له أيضاً ابن أبي الإصبع المصري مبحثاً خاصاً في كتابه «تحرير التحبير» وهو عنده أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[60]، فالجلالة الأولى مضاف إليها، والثانية مبتدأ بها.

---

(58) انظر بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، (المقاصد الكبرى) 1/ 21.

(59) البيان والتبيين، 1/ 104 ـ 105.

(60) سورة الأنعام، الآية: 125.

ومن الترديد نوع يُسمّى التّرديد المتعدّد، وهو أن يتردد حرف من حروف المعاني، إما مرّة أو مرات، وهو الذي يتغير فيه مفهوم المسمى لتغير الاسم.

إما لتغاير الاتصال، أو تغاير ما يتعلق بالاسم، ومثال هذا النوع[61] قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[62].

وفرّق بين مصطلحي التكرار والترداد، إذ قال: «والفارق بين الترديد والتكرار أن اللفظة التي تُكرّر في التكرار لا تُفيد معنى زائداً بل الأولى هي تبيين للثانية، وبالعكس، واللفظة التي تردّد تفيد مَعْنى غير معنى الأولى منهما، واشتقاقهما مشعر بذلك؛ لأن الرّاد من وجه لا يبلغ إلا الموضع الذي أراده، والكارّ هو الذي انتهى إلى الموضع المراد»[63].

وورد هذا المصطلح عند صاحب «الطراز» مراداً به معنى غير معنى التصريف، وذلك قوله: «والترديد تفعيل من قولهم ردّد الثوبَ من جانب إلى جانب، وردّد الحديث ترديداً، أي كرّره، ومعناه في مصطلح علماء البيان أن تُعَلِّقَ اللفظة بمعنى من المعاني، ثم تردُّها بعينها وتعلقها بمعنى آخر، وعند هذا يحسن رَصْفُه ويُعْجِبُ تأليفه»[64].

وعده السيوطي في كتابه «معترك الأقران في إعجاز القرآن» قسماً من أقسام التكرار، إذ قال: «ومنه ما كان لتعدد المتعلق، بأن يكون المكرر ثانياً متعلقاً بغير ما تعلق به الأول، وهذا القسم يسمى بالترديد، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[65] وقد وقع فيها الترديد أربع مرات»[66].

وتعقبه الأستاذ أبو زيد، قائلاً: «ويفهم من كلام السيوطي أنه استعمل

---

(61) تحرير التحبير، ص253.

(62) سورة المائدة، الآية: 53.

(63) تحرير التحبير، 254 ـ 255.

(64) الطراز، 3/ 82.

(65) سورة النور، الآية: 35.

(66) معترك الأقران في إعجاز القرآن، 1/ 260.

الترديد بمعنى غير معنى التصريف، كما يفهم منه أن في القرآن أسلوباً يظن تكراراً وليس منه.

وذكر من أمثلة هذا الأسلوب الأمثال والقصص، لكنه لم يذكر أن هذا الأسلوب هو ما سماه القرآن بالتصريف»[67].

وقد ورد هذا المصطلح مراداً به التصريف في تفسير أبي حيان الأندلسي، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[68] إذ قال: «لما ذكر ـ تعالى ـ عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل القرآن نبه على فضله ـ تعالى ـ بما ورد فيه، وضرب من الأمثال والعبر، التي تدل على توحيده ـ تعالى ـ ومع كثرة ما ورد من الأمثلة وأسبغ من النعم أبى أكثر الناس إلا كفوراً»[69].

2 ـ مساوىء التكرار:

تباينت آراء العلماء حول مصطلح التكرار ـ كما رأينا في العرض السابق ـ فمنهم من يرى أن التكرار من الفصاحة والبيان، ومنهم من يرى عكس ذلك، وأنا لا أنكر أن بعض أنواع التكرار من الفصاحة، ولكن أرى أن نستبدل به مصطلح التصريف القرآني؛ لما في التكرار من المساوي التي يراها بعض العلماء، الذين تعرضوا لهذا المصطلح والتي ألخصها في:

أ ـ **الكراهة**: إذ يرى كثير من العلماء، أن في التكرار كراهة، كما قال ابن جمَّاعة، عند توجيهه لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾[70]: «إن في ذلك كما قدمنا مرات للتفنن؛ لكراهة التكرار؛ لما فيه من مج النفوس»[71].

ب ـ **القبح**: وممن وصفه بذلك ابن النقيب، فقال: «فهو التكرار العاري عن

---

(67) مصطلحات بيانية في القرآن الكريم، ص9 ـ 10.

(68) سورة الإسراء، الآية: 89.

(69) البحر المحيط، 6/ 77.

(70) سورة النور، الآية: 56.

(71) كشف المعاني، ص273.

الفائدة، وهو لا يخلو إما أن يكون في المعنى وحده، أو في المعنى واللفظ معاً، أما الأول فقد أعابه بعضهم مطلقاً، وبعضهم فصّل فأعابه على الناثر وعلى الناظم، وأما الثاني فقد اتفق على قبحه»[72].

ج ـ **عديم الفائدة**: كما صرح بذلك الإمام الغزالي حين قال: «إن حد المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة»[73]، وصرح به أيضاً الطوفي سليمان، حين قسم التكرار إلى مفيد وغير مفيد[74].

د ـ **التكرار من الحشو**: كما صرّح بذلك الإمام محمد أبو زهرة حين قال: «إن التكرار ليس من الإطناب، وهو من الحشو»[75].

هـ ـ **السآمة والملل**: اللذان يحدثهما التكرار، وقد أشار إلى شيء من ذلك الجاحظ حين قص علينا ما حصل بين ابن السّماك وجاريته، عندما سألها عن ترداد كلامه، فأجابته: ما أحسنه لولا كثرة ترداده، وحاورها في ذلك حتى قالت له: قد مله من فهمه[76].

و ـ القلق والاضطراب، كما صرح بذلك صاحب «خصائص التعبير القرآني» إذ قال: «لأن التكرار وهو فنّ قولي معروف قد لا يسلم الأسلوب معه من القلق والاضطراب، فيكون هدفاً للنقد والطعن»[77].

خامساً: إطلاق مصطلح التصريف القرآني أولى دلالة من التكرار:

إن إطلاق مصطلح التصريف القرآني وتوجيه الآيات الكريمة من خلاله أولى دلالة من مصطلح التكرار، اقتداء بكتاب الله ـ تعالى ـ الذي يرشدنا إلى مصطلح التصريف، ولما وصف به التكرار من المساوي، تنزيهاً للقرآن عن

---

(72) مقدمة تفسير ابن النقيب، ص113.

(73) جواهر القرآن، ص39 ـ 42.

(74) الإكسير في علم التفسير، ص245.

(75) المعجزة الكبرى، ص313.

(76) البيان والتبيين، 1/ 104.

(77) خصائص التعبير القرآني، 1/ 322.

المطاعن، ولما رأيناه كذلك من تضارب بين العلماء حول مصطلح التكرار، وحتى الواحد منهم تراه غير مستقر على رأي معين، فمرة يثبت التكرار ومرة ينفيه.

وتأسيساً على ما ذكرنا من أدلة نرى أنه ليس هنالك تكرار في القرآن الكريم، وإنما هو تصريف للبيان القرآني، بدليل أن الذي يستقرىء الكتاب العزيز لا يجد نصاً بذلك، بمعنى أن الله ـ تعالى ـ لم يقل كررنا الآيات أو رددناها، وإنما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ﴾[78] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ﴾[79] وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[80] وغيرها من الآيات الدالة على التصريف التي ذكرناها في موضعها من هذا البحث.

وهذا من باب أولى أن ينفي هذه الصفة عن القرآن الكريم، الذي قال الله فيه: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[81].

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه أيضاً أن القرآن الكريم صرح بذكر اللفظ المناسب وبعدم استعمال ما فيه طعن، مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[82].

وقد فطن إلى هذا الملحظ الدقيق كثير من العلماء، منهم الإمام الغزالي، الذي نفى التكرار في القرآن الكريم نفياً قاطعاً، إذ قال: «وقوله ثانياً: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى الصفة مرة أخرى، ولا تظن أنه مكرر، فلا تكرار في القرآن، إذ حدُّ المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة، وذكر الرحمن بعد ذكر العالمين، وقبل: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ينطوي على فائدتين عظيمتين في تفضيل مجاري الرحمة...

والمقصود أنه لا مكرر في القرآن، فإن رأيت شيئاً مكرراً من حيث الظاهر

---

(78) سورة الأنعام، الآية: 47.

(79) نفسها، 106.

(80) سورة الإسراء، الآية: 41.

(81) سورة هود، الآية: 1.

(82) سورة البقرة، الآية: 103.

فانظر في سوابقه ولواحقه لينكشف لك مزيد الفائدة في إعادته»[83].

«وقد ناقش في كون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بمعنى واحد العلاّمة الشيخ محمد عبده المصري، في بعض مباحثه التفسيرية قائلاً: إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها، ثم قال: وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه، إن في القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها، ولا معنى لها في نفسها، بل ليس في القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود»[84].

وقد تصدى لهذا الرأي ـ يعني التكرار ـ سابقون في فهم اللغة والدين، أحدهم الشريف الرضيّ، الذي دفع في كتابه «حقائق التأويل» أن يكون قد وقع في الكتاب تكرار للتوكيد، وأحدهم أبو العباس بن المعتز، الذي قال في كتابه «البديع» حين تكلم عن المذهب الكلامي، وهذا باب ـ أي التكرار ـ ما علمت أني وجدت منه في القرآن شيئاً، وهو ينسب إلى التكلُّف ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

أما ما قيل: من أنها معان تكررت في القرآن فإنه أمر أشد صعوبة، وأبعد خطراً، فقد تجيء هذه المعاني في نظائر مختلفة الألفاظ، ومسالك الأداء، فتبلغ في تصرفها، وتعدد أساليبها حداً معجزاً، قد لا يمر أحد مهما تكشف له من بلاغة القرآن، إلا أن تغيب عنه أسرار من هذه النظائر والأشباه. . .

وحتى من قالوا بمذهب التكرير في القرآن، فإنهم لم يبتعدوا عن كونه يقع في مواقع مختلفة تكون مقدمات لمقاصد أو نتائج لمقدمات ولكنها تختلف مواقعها وأغراضها[85].

وقد نفاه أيضاً الرازي، عند قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾[86] فقال: «أما قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فليس بتكرار؛ لأن

(83) جواهر القرآن، ص39 ـ 42.

(84) تفسير القاسمي، 2/ 5 وتفسير المنار، 1/ 46.

(85) حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ص82، ومن الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، ص17.

(86) سورة البقرة، الآية: 150.

تلاوة القرآن عليهم غير تعليمه إياهم، وأما «الحكمة» فهي العلم بسائر الشريعة التي يشتمل القرآن على تفصيلها. . .

أما قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ فهذا تنبيه على أنه ـ تعالى ـ أرسله على حين فترة من الرسل»[87].

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[88].

فقال: «السؤال الثاني: لم كرر قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ والجواب: ليس فيه تكرار؛ لأن في الأول أن المسيح يصدق التوراة، وفي الثاني الإنجيل يصدق التوراة»[89].

وقال السيوطي: «ومن أمثلة ما يُظنُّ تكراراً، وليس منه ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[90] إلىء آخرها، فإن: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي في المستقبل ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ أي في الحال ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾في المستقبل ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾ أي في الحال ما عبدتم في الماضي، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ أي في المستقبل ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ في الحال، فالحاصل أن القصد نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاثة»[91].

وقد نفاه كذلك مصطفى محمود، وأشار إلى التصريف، دون أن يصرح به، في كتابه «القرآن كائن حي» إذ قال: «يظل هناك وجه معجز من وجوه القرآن، ربما كان أهم من كل هذه الوجوه، يحتاج إلى وقفة طويلة، وهو ما أسميته بالمعمار أو البنية الهندسية، أو التركيب العضوي، أو الترابط الحيّ بين الكلمة والكلمة، وما أشبه القرآن في ذلك بالكائن الحي. . .

---

(87) تفسير الفخر الرازي 4/ 158.

(88) سورة المائدة، الآية: 48.

(89) نفسه، 12/ 10.

(90) الكافرون، 1، 2.

(91) الإتقان، 3/ 203.

الكلمة فيه أشبه بالخلية، فالخلايا تتكرر وتتشابه في الكائن الحي، ومع ذلك فهي لا تتكرر أبداً، وإنما تتنوع وتختلف، وكذلك الكلمة القرآنية، فإننا نراها تتكرر في السياق القرآني، ربما مئات المرات، ثم نكتشف أنها لا تتكرر أبداً على الرغم من ذلك، إذ هي في كل مرة تحمل مشهداً جديداً، وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل، وأنها تتفرع تفرعاً عضوياً تاماً»[92].

وقد أشار صاحب «ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين» إلى أن ما يظنه بعضهم تكراراً، هو ليس من التكرار، وضرب لذلك مثلاً بسورة الكافرون، ثم قال: «فإن من يعاود النظر يجد أن الموقف اقتضى اختيار تلك الوحدات اللغوية، وأن الدلالة كانت في حاجة لها، وأن المعنى اللغوي لا يكمل إلا بها، وأنه لا تكرار فيها، والحاصل أن القصد نفي عبادته لآلهتهم في الأزمنة الثلاثة في الماضي والحاضر والمستقبل»[93].

تلك بعض الأدلة التي تبين أنه لا تكرار ولا ترداد في القرآن وإنما هو تصريف للبيان القرآني.

ومن ثم فإنه ينبغي أن نبعد هذا المصطلح عن القرآن الكريم؛ لأنه لا يليق ببيانه المعجز، وسر عظمته.

ومما يؤكد كذلك ما اخترناه من أن ما يراه بعض المهتمين بالدراسات القرآنية والبلاغية، أن في القرآن تكراراً هو تصريف للبيان القرآني، ما عرَّفه به أبو بكر الباقلاني بقوله: «وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة ما كرر من قصة موسى في مواضع»[94].

وما يراه محمد أبو زهرة من أن التكرار من تصريف البيان، لا من الإطناب المجرد، إنما هو لمقاصد ولتوجيه النظر، ومناسبة المقام، ويقول أيضاً: «وإن

---

(92) القرآن كائن حي، ص4.

(93) ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين، ص67.

(94) إعجاز القرآن، ص274.

ذلك التكرار من تصريف القول، الذي هو وجه من وجوه البيان القرآني، الذي قصد إليه الكتاب العزيز»[95].

وخلاصة القول في هذا الموضوع، أن مصطلح التصريف أولى دلالة في توجيه الآيات الكريمة من مصطلح التكرار، وأن ما ذهب إليه أولئك لا يعد تكراراً؛ فلو تأملنا الآيات المتشابهة، والآيات التي يرون أنها مكررة؛ لتبين لنا اختلاف كبير في بعض مفرداتها، واختلاف في سوابقها ولواحقها وأسباب نزولها.

ومن هنا فإن هذا التنوع البياني في الآيات، هو تصريف للقول في القرآن الكريم، في أعلى مراتبه، وله مقاصد ومرام يرمي إليها في كل مرة، بل في كل كلمة من آي كتاب الله ـ تعالى ـ ذلكم البيان الرائع، والتصريف العجيب، الذي أعجز الإنس والجن فرادى ومجتمعين[96].

والحمد لله رب العالمين

مصادر البحث ومراجعه

1 ـ **القرآن الكريم، مصحف الجماهيرية**، برواية الإمام قالون، والرسم العثماني على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الداني، أشرفت على إعداده وطباعته ونشره، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس ليبيا.

2 ـ **الإتقان في علوم القرآن**، للحافظ جلال الدين السُّيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث القاهرة، ط الثالث 1405هـ.

3 ـ **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز**، تأليف الإمام الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، اعتنى بطبعه وقدم له رمزي سعد الدين دمشقية، دار البشائر الإسلامية بيروت، ط الأولى، 1408هـ/ 1987م.

(95) المعجزة الكبرى القرآن، ص160 ـ 162.

(96) بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، 1/ 27 ـ 28.

4 ـ **إعجاز القرآن للإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني**، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط الأولى، 1411هـ، 1991م.

5 ـ **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، تأليف مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1410هـ/ 1990م.

6 ـ **إعجاز القرآن، الإعجاز في دراسات السابقين**، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط الأولى، 1974م.

7 ـ **الإكسير في علم التفسير للعالم الطوفي سليمان**، تحقيق عبد القادر حسين، مكتبة الآداب لصاحبها علي حسين، القاهرة، د.ت.

8 ـ **البرهان في علوم القرآن**، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط الثالثة، 1400هـ/ 1980م.

9 ـ **بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم (المقاصد الكبرى)** إعداد الباحث: عبد الله محمد النقراط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1997/ 1998م، وهي أطروحة دكتوراه (مرقونة) لم تنشر بعد.

10 ـ **بيان إعجاز القرآن للخطابي**، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهره، د.ت.

11 ـ **البيان والتبيين للجاحظ**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، د.ت.

12 ـ **تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة**، شرح ونشر السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية بيروت، ط الثالثة، 1401هـ/ 1981م.

13 ـ **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري**، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، وزارة الأوقاف. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1416هـ 1995م.

14 ـ **تفسير البحر المحيط**، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1413هـ/ 1993م.

15 ـ **تفسير التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور، النشرة الثانية، الدار التونسية للنشر، 1973م.

16 ـ **تفسير فخر الدين الرازي**، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط الأولى، 1401هـ/ 1981م.

17 ـ **تفسير القاسمي: المسمى محاسن التأويل**، تأليف محمد جمال الدين القاسمي، طبع وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، وشركاه، ط الأولى، 1376هـ/ 1957م.

18 ـ **تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار**، للإمام محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، ط الثانية، د.ت.

19 ـ **جواهر القرآن، لحجة الإسلام**، أبي حامد الغزالي، مكتبة الجندي بمصر، د.ت.

20 ـ **حقائق التأويل في متشابه التنزيل**، تأليف الشريف الرضِيّ، شرح العلامة محمد الرضا آل كاشف الغطاء، دار الأضواء، بيروت، ط الأولى، 1406هـ/ 1986م.

21 ـ **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية**، عبد المنعم إبراهيم محمد المعطي، مكتبة وهبة القاهرة، ط الأولى، 1413هـ/ 1992م.

22 ـ **دراسات قرآنية**، محمد قطب، دار الشروق بيروت، دار الثقافة الدار البيضاء، طبعة 1414هـ/ 1993م.

23 ـ **ظاهرة التكرار في القرآن الكريم**، لعبد المنعم السيد حسن، دار المطبوعات الدولية، القاهرة، ط الأولى، 1400هـ 1980م.

24 ـ **الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم**، نذير حمدان، دار المنار جدة ط الأولى، 1412هـ/ 1991م.

25 ـ **ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين**، البدراوي زهران، دار المعارف القاهرة، ط الثانية، 1993م.

26 ـ **القرآن كائن حيّ**، مصطفى محمود، دار المعارف القاهرة، ط الثالثة، د.ت.

27 ـ **كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، تأليف يحيى بن حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1400هـ/ 1980م.

28 ـ **كشف الظنون حاجي خليفة**، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

29 ـ **كشف المعاني في المتشابه من المثاني**، تأليف بدر الدين بن جماعة، تحقيق وتعليق عبد الجواد خلف، منشورات جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي باكستان، ط الأولى، 1410هـ/ 1990م.

30 ـ **لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظور**، دار الفكر، ودار صادر بيروت، د.ت.

31 ـ **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط الثانية، د.ت.

32 ـ **مصطلحات بيانية في القرآن الكريم**، بحث للأستاذ أحمد أبو زيد، لم ينشر بعد.

33 ـ **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، لأبي الفضل جلال الدين السيوطي، ضبط وتصحيح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1408هـ/ 1988م.

34 ـ **المعجزة الكبرى القرآن**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 1390هـ/ 1970م.

35 ـ **المفردات في غريب القرآن**، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت، د.ت.

36 ـ **مقدمة تفسير ابن النقيب المصري، إشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات دار مكتبة الهلال بيروت 1989م، وقد نسب خطأ لابن قيم الجوزية، بعنوان: «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن»**.

37 ـ من الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، تأليف عبد العزيز سيدالأهل، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1400هـ/ 1980م.

38 ـ **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، لأبي محمد القاسم السجلماسي، تقديم وتحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، ط الأولى، 1401هـ/ 1980.

39 ـ **النكت في إعجاز القرآن**، للرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة، د.ت.